

التاريخ في سيرة أبطاله

أحمد عرابي

أما أن التاريخ أن يصف لنا للمصرى الفلاح
وأن يحدد له مكانه بين نوادى حركة القومية ؟

للأستاذ محمود الحفيف



ولست أدري كيف كان يطعم بلنت في أن يقنع غلابستون
بالعطف على قضية الأحرار في مصر ، وقد كان رجال السياسة
في إنجلترا يسمون ما وسعهم السى إلى الاستيلاء على مصر منذ
أن التقى البحران ، وهو انجليزى لا يفتنى عليه نيات الإنجليز
وأساليبهم تجاه الشعوب الشرقية ؟

إنى أنهم لن تجوز أعيب السياسة الإنجليزية على أولئك
الأنفال من أهل الشرق الذين أذهلهم ما هدم من ضعف من
الحقائق فصدتوا الباطل وهم يجهلون ، أو الذين غرتهم بأوطانهم
زخارف الميش ووساوس النفس فاقسوا في الباطل وهم يملكون ؟
أما أن تجوز الأباطيل على انجليزى علم بالسياسة وأوضاعها فهذا
ما لا أقمعه ، ولذلك فلولا ما تا كدهلى من إخلاص مستر بلنت

(*) صورة زيتية أخذها أحد الفنانين الأجانب لمرابي سنة الثورة ولد
أصغرها إلى المتر بروطى مجايه وعليها اسماءه

تفضية الوطنيين حتى قضى الاحتلال فيها قضاءه لارتبت في نيانه
كأ أرتاب في نيات الماسة من أهل بلاده أبداً .

وكان القدر يابى إلا أن يظهر بين حين وآخر من الإنجليز
أنفسهم من لا تظنى على ضمائرهم خدع السياسة ، أو يشوه الجانب
الإنسانى من نفوسهم أو ضار الميش ، فيكون من هؤلاء حجة
على المرائين الماكزين من بنى قومهم ، ويكفونون بينهم شهوداً من
أهلهم عليهم تبيث أصواتهم مجلجة فتملأ أسماع أولئك الماسة
الذين يرددون أسمعهم دون أصوات الشعوب المغلوبة على أمرها
مهما يبلغ من قوة انبساطها ؛ ومن هؤلاء الأحرار روثستين وبلنت
ومن هذا حذوها .

قدر على شريف أن يلاق عتقا شديداً من مسلك الخديو من
أول الأسرا وأخذت وزارته تشن طريقها في حذر شديد بين
تلك الصعاب القائمة ، وكان أعظمها صعاب الأجانب وتوتهم
في ذلك الوقت ، ولقد هال هؤلاء الأجانب انبعاث الروح الوطنية
إذ رأوا فيها بوادر القمضاء على ما يمتنون به أنفسهم في مصر .
وسارت سفينة الحكم بين هذه التيارات المختلفة ، تنكر
الخديو لقضية الحرية ونشاط المدافعين عن هذه القضية ، وترىص
الدولتين بالحركة جيماً .

كان طبيعياً أن تفتق البلاد على سيحة عرابي ، وأن تنطلق
النفوس من عقابها ، فلقد أتيح للناس قدر من الحرية وهم إليها
عطاش تتحرق نفوسهم ؛ فبدأ الوطنيون يمبرون مما احتبس
في صدورهم منذ عهد إسماعيل ، وطادت الصحف تمبر من مساوى
التدخل الأوروبى وتندد بأساليب الدخلاء في مصر الذين سلبوها
أقواتها بالحيلة وحالوا بينها وبين أمانها زمناً بالأرهاب والبطش ؛
والذين كان يحتل الكثيرون منهم الوظائف المصرية الخطيرة
ويؤجرون على أعمالهم فيها إن كان تحتلم فيها من أعمال أجوراً
غالية من خزانة مصر الفقيرة .

وأخذت جريدة الطيف ، وكان يصدرها جده الله نديم ، تقاوم
البهرج الزائف الذى بدأ يلمع في مصر فيختلف سرا به أبعصار
الجاهلين ، والذى سماه الأوروبيون مدنية ليكون لهم منه سلاح
من طراز آخر يضيفونه إلى أسلحة الدس والكيد التى سلبوها
على البلاد ؛ وحل الكرام الكاتبون على المراقص وحامات الخمر
ودور الجون ومواخير السفر وغيرها من سيئات التى ترقى الى
كان يذيعها في مصر أولئك الذين جعلوا من مجردات تدخلهم
في شئون البلاد رفيتهم في هداية أهلها إلى الذنية ا

وكان بيت عرابي قبل أن يبين في منصبه الجديد مقصد الناس من جميع الطبقات والهيئات الوطنيين والأجانب في ذلك سواء ؛ وكانت شهرة عرابي تطلق على شهرة جميع الرجال من حوله حتى البارودي وشريف وكان لهما الحكم والجاه ؛ والحق لقد أجمعت الأنظار إلى عرابي منذ يوم عابدين وأصبح من المستحيل أن يتزل السياسة أو تتزله السياسة ، وقد خطا في سبيلها تلك الخطوة الجريئة التي كان التحلل طيفها

أخذنا على عرابي أنه حينما طلب إليه أن يخرج من القاهرة بفرقة اشترط أن يكون ذلك بعد صدور أمر الخديو بدعوة مجلس شورى النواب ، ونموذ فتأخذ عليه أنه تدخل في الأساس التي يجتمع عليه المجلس . فكان شريف يرى أن يكون ذلك وفق لأئمة عام ١٨٦٦ ، أي أول لأئمة للمجلس على أن يقوم المجلس بالتعاون مع مجلس الوزراء بوضع لأئمة جديدة يحمل منه جملاً نيابياً بلام حال البلاد ؛ وبعد ممارسة شديدة وافق عرابي على ذلك

ثم تدخل عرابي في مسألة أخرى وهي الميزانية المخصصة للإبلاغ الجيش ثمانية عشر ألفاً من الجنود ، فلقد أبدت المراقبة المالية عدم موافقتها على البلغ اللازم كله ، وبعد أخذ ورد وافق عرابي على ما تيسر دفعه من هذا البلغ على أن يقوم بتوفير الباقي من وجوه أخرى .

لقد قطع عرابي على نفسه عهداً كما أسلفنا ألا يتدخل في شؤون الحكومة للقاعة وعلى هذا الأساس قبل شريف رئاسة الوزارة ؛ لذلك نرى أن تدخل عرابي في الأمور التي ذكرناها يوجب ملامته ولن يشفع له أنه كان يطلب الخير ولن يخفف من اللوم عليه أنه رضى آخر الأمر ولم يسبب للحكومة هتكا ، فهذه الأمور من اختصاص الحكومة وهي لن تمس كما نرى جوهر قضية البلاد

لم ين أعداء هذه الحركة الوليدة عن مناورتها في مصر وخارج مصر ؛ وإلى هذه الناوراة يرجع سبب جرح هذه الحركة والتوائها على شريف ثم خروجها آخر الأمر من يده ، ولو أنه قدر لمصر في تلك الأيام المصيبة أن آزر الخديو كبير وزرائه ضد الدسائس التي كانت تحاك للبلاد لا يمكن شريف أن يسير بالمصيبة إلى شاطئ السلامة ، ولكن الخديو وأسفاه لم يكتف بعدم الوزارة بل لقد التجأ إلى الأجانب فكان هذا العمل من جانبه أقوى مساعد على نجاح سياستهم ...

وكان أوكلند كلثن العضو الإنجليزي في لجنة المراقبة المالية ،

وإدوارد مالك تشغل أبحاثه في مصر عما اللذان يمكن الشريك حول الخديو ، ولقد كانت لها سياسة ماهرة غادرة تدور على أسس أحكم وضعها أولها وفق ما تعلم في الهند ؛ فهما يظهران الولاء للخديو فيدسان له بذلك السم في اللقن ، ثم هما يخونانه أبداً من تركيا والرايين جميعاً فيذران قلبه هرواه ، وما بعد ذلك يضلان الرأي العام في بلادهما ويرسلان التقارير السرية بما يجب أن يتبع إلى وزير الخارجية

وكانت وسيطهما في تضليل ذلك الرأي العام ؛ السيطرة على الصحف بالسيطرة على مراسلها ، وكان كلفن نفسه مراسلاً لإحدى الصحف الهامة ، وكان مراسل التيمس يعتمد عليه في استقاء المعلومات ، أما شركتا روتر وهافاس ، فقد كان يعطى لكل منهما ألف جنيه في العام من خزنة مصر ؛ وقل أن تصادف في تاريخ السياسة عملاً أشد فجوراً من أن تحارب قضية شعب بنفود من خزائمه !

وكانت الحركة الوطنية تلاقى أبلغ الكيد خارج مصر من جانب الصحافة أول الأمر ، إلى أن منيت بعد ذلك بالتدخل الرسمي الفاجر ، الذي لم يدع في تاريخ العالم عزفاً إلا خرج عليه ، ولا قاعة إلا سخر منها وحطمها محطياً .

أخذ عرروا الصحف في إنجلترا وفرنسا يتندون بشورة مصر ويستخرون من نهضة مصر ، ولو أنهم كانوا يحتمون أنفسهم حقاً ، أو يحتمون المبادئ التي نادى بها بلادها لمنعم ذلك عما فعلوه ...

وما ذا جنت مصر يومئذ حتى تستقبل أوروبا حركتها بأسوأ ما تستقبل به الحركات ؟ ألم تجر في أوروبا السماء في سبيل تلك المبادئ التي كان يتنادى بها المصريون ؟ وكيف تكون نتائجها عذبة مشهية إذا تننى بها أهل تلك الشعوب ، ثم تكون ممجوجة مملولة إذا هتف بها الشرقيون ؟

هذا شعب ينفذ عنه غبار القرون ، ويخطو نحو الحرية كما خطت أوروبا ، ثم هو يندب الأجانب عن قوميته ، وقد تقفوا عليها بانتيازاتهم الأئيمة الظالمة تحل الحشرات والمهوام ، فإذا كانت ترى أوروبا في هذا من مبادئ التنوير والمدنية ولم يصحب حركة المصريين عدوان على أولئك الأجانب على ما كانوا يلاقونه منهم من عنف وإفساد ؟ ألا إنها السياسة قلب عرف الناس نكراً ، وتجعل المبادئ التي يتنادى بها دماء الإنسانية في نظر

تثبيت قواعد سياسته، وكان من أمر ذلك أن تنازل عمراي عن وابه في الموقفين السالف ذكرهما، وكان من أمره أيضاً أن خفقت الصحف من لهجتها وكفكت من غلوائها؛ ولقد كان للامام محمد عبده فضل كبير في توجيه العناصر الوطنية نحو هذا السلك الحكيم...

ولكن الأمل ما لبث أن تجمعت في حواشيه النجوم وأحست السفينة برادر عاصفة قوية ما عتمت أن هبت شديدة عاتية نفذ لها صبر الزبان أو كاد، وتلك هي أزمة الميزانية الشهيرة.

فرغ شريف من إعداد اللائحة الجديدة للمجلس النيابي ثم عرضها على النواب؛ وشهد ما كانت دهشتهم أن رأوا شريف يقرر فيها ألا يكون من اختصاص المجلس عند النظر في الميزانية البحث في جزية الباب المالي والدين العام، وكل ما فرضه قانون التصفية على الخزنة من نفقات.

وهال النواب وأعضهم أن يكون ذلك باتفاق شريف مع المراقبين، فرفضوا ذلك وأصرروا على أن ينظروا الميزانية كاملة، واعتبروا ذلك من الحقوق التي لا تقبل مساومة مهما يكن من الأمر، وأخذ شريف المسألة من الناحية العملية، فلم يشايح النواب في نظرياتهم، وأخذ يطلب إليهم الأناة والحذر ويربهم طابفة التطرف والتجمل، ولكنهم لم يلتفتوا إليه، وظهرت في الوزارة نفسها بوادر التفكك. فلقد كان البارودي يطمع في الحكم بعد شريف فكان لذلك يشجع الوطنيين في موقفهم سراً.

وكان سلطان باشا رئيس المجلس يتم على شريف أن لم يسلكه في سلك وزارته فوجد في الخلاف القائم فرصة بنال بها من شريف نمران ما أنهم شريف بالاعتدال، ثم حمل اعتداله على الجبن والضعف... ثم بلغ الأمر إلى إتهامه بالخيانة

ووقف الزبان يواجه العاصفة في صبر وجلد، وهو يؤمل أن يجنح النواب إلى السلام والاعتدال، ونشط الشيخ محمد عبده في معاونة شريف، وما ذكره في هذا السدد قوله: «لقد ظننا ننتظر حريقنا مئات السنين، أقيصب علينا أن ننتظرها بضعة شهور أخرى؟»

ثم بدى على الأفق بعد حين ما يبشر بقرب انكشاف الضمة؛ فلقد أخذ النواب يتديرون طابفة هذا التشدد، وبدأ المقل يتقلب شيئاً فشيئاً على الباطفة.

التعريف

« يتبع »

السياسة أحياناً لا نجد لها مستقراً إلا في رؤوس المنى من الفلاسفة ورؤوس الأعيان من مصدقيهم.

أما السياسة فقد كانوا لا يتوانون عن السكيد، ولا يفتقر لهم سبي في تلمس السبيل التي يستنون بها على الفريسة، وكان موقف إنجلترا وفرنسا من مصر ينطوي على كثير من المعاني التي تبعث على الأمل والضحك معاً، وكم من الناس ما تضحك منه النفوس ولكنه ضحك المرارة التي لن يبلغ السمع بلفها

كان موقف الدولتين كوقف رجلين يطعمان في استلابدشي، وكل منهما يريد لنفسه دون الآخر ولكنه يمويه على صاحبه، وكل من الرجلين يفهم حق الفهم أن الآخر يدرك حقيقة موقفه منه، ولكنهما على الرغم من ذلك يتنايان ويضللان!

هذا هو موقف الدولتين على مسرح السياسة في تلك الأيام، ولكنكم شهد التفرجون برشد من الأساليب البيكيايلية وأوضاعها، ولكنكم شهدوا من أساليب غيرها لو قرنت بها الأولى لكانت منها كالمخسبات، ثم يسدل الستار والتفرجون من أهل مصر لا يملكون أن ينطقوا بكلمة استهجان لما رأوا، بل لقد فرض عليهم أن ينظروا عقود المدح وإلا عد سكونهم جحوداً وعناداً، وأي شيء أوجع وأسكى من أن يرغم شيب على قبيل الأيدي التي استلبته حقوقه والأفلال التي دارت حول عنقه

ويظهر أول شاهد على السياسة الإنجليزية في تقرير كتبه كاتن بعد الثورة بشرة أيام جاء فيه: «أرى أن ليست الحال الحاضرة بطبيعتها إلا هدة، وأن ما وصلنا إليه من التسوية ليمطينا مهة تستجيم فيها ونلم فيها بالقوى التي تعمل حولنا ونسئ في الاستفادة منها أو القضاء عليها»^(١)

وليس في هذه العبارة أول شاهد على السياسة الإنجليزية لحسب، بل إن فيها ملخص تلك السياسة؛ فتستربص إنجلترا للحركة حتى يحين الوقت وحتى تستطيع أن تعمل بمفردها دون فرنسا...

وكان شريف بقطاً يظن إلى دقة الموقف ويدرك مرامي السياسة الإنجليزية وأساليبها؛ ولذلك كان لا يفتأ يحض أنصار الحركة الوطنية على اتباع الحكمة ومجانبة الشطط حتى لا يكون من أعمالهم أو أقوالهم ما تسيء أوروبا فهمه بقسوة بذلك العاقبة وأخذ المعتاد من رجال الحركة الوطنية بما ونون شريف على

(١) الساسة للفرنسية لروسيين نمرين العباسي وديوان